

العرب..

لهم يغزوا الأندلس

نصر الدين البهجة

هناك رأيان بين المؤرخين حول بداية العصور الحديثة. الفريق الأول يذهب، إلى أن سقوط القسطنطينية- استانبول الحالية، أو الأستانة كما كانت تدعى في مطالع القرن العشرين- بيد محمد الفاتح عام ١٤٥٣ هو بداية هذه العصور. في حين يذهب الفريق الثاني إلى أن اكتشاف أميركا في ربيع عام ١٤٩٢ على يد كريستوف كولومبوس هو مبتدأ العصور الحديثة.

اللافت للنظر في هذه الأثناء أن السنة نفسها ١٤٩٢ شهدت سقوط آخر حصن للعرب في الأندلس -إسبانيا- وقيام آخر ملوك غرناطة "أبي عبد الله الصغير" يوم الثاني من شباط ١٤٩٢ بتسليم مفاتيحها إلى الملكين الإسبانين فرديناند، ملك الأراغون، وإيزابيلا. ملكة قشتالة، والذين كانا قد تزوجا قبل ثلاث وعشرين سنة، عام ١٤٦٩.

.. وبعد ستة أشهر تقريباً وافق فرديناند وإيزابيلا، على تمويل رحلة كولومبوس التي أرادت اكتشاف طريق جديد للهند وتجارتها، عن طريق الغرب، مادامت فكرة كروية الأرض قد وقفت على قدميها، بعد أن ظلت الكنيسة الكاثوليكية تحاربها سنوات طويلة.

وانطلقت سفن كولوموس الثلاث: "سانتا ماريا" و"لاينتا" و"لانيا" في الثالث من آب "أغسطس" عام ١٤٩٢.. لتكشف نظرياً طريقاً جديداً للهند، وفعلياً: أميركا.

ولابد من الإشارة هنا، إلى أن البحارة الذين كانوا على متن السفن الثلاث استقدموا جميعاً من السجون الإسبانية، ومنحوا الحرية لقاء اشتراكهم في هذه المغامرة التي تردد معظم "الأحرار" عن المشاركة فيها...

..في خريف عام ١٩٩٢، احتفل في إسبانيا والولايات المتحدة، بمرور خمسة قرون على اكتشاف قارة أميركا. وقد تحدث الرئيس الكوبي الدكتور فيدل كاسترو في هذه المناسبة، فقال في

١٢/١٠/١٩٩٢: "إن رحلة كريستوف كولومبوس إلى العالم الجديد قبل خمسمئة عام لم تكن استكشافية، بل كانت تدفقاً أوروبياً عنيفاً إلى أميركا". وقال أيضاً: "إن الهدف من تلك الرحلة، كان فرض ثقافة على ثقافة أخرى، وتحطيم أمم بواسطة تكنولوجيا عسكرية أكثر تطوراً".

الهنود بعد خمسمئة سنة

.. وكان عدد من المدن الأميركية الكبيرة، قد شهد في اليوم نفسه: الاثنين ١٢ تشرين الأول ١٩٩٢ تظاهرات مختلفة احتجاجاً على عمليات إبادة سكان أميركا الأصليين: الهنود الحمر، وتدمير ثقافتهم. بينها مدينة كولومبوس في ولاية أوهايو، وقد أقيم فيها قداس نظمته مجموعات ممن تبقى من الهنود الحمر، إحياء لذكرى "ضحايا الاستعمار الأوروبي". وفي شيكاغو صلب الهنود الحمر، صباًغاً أحمر في نهر شيكاغو. وقال "أورن ليونز" زعيم إحدى قبائل الهنود الحمر "أونوداغا" وهو أستاذ الدراسات الأميركية في جامعة نيويورك الرسمية: إن الديمقراطية لم تأت مع "لانيئا" و"لابينتا" و"سانتا ماريا". وأضاف: إن الهنود سلّبو القسم الأكبر من أراضيهم وقضي على ثقافتهم تقريباً. والآن بعد خمسمئة عام فإنهم بين الأكثر فقراً.. من الأميركيين.

وكان طبيعياً أن يشارك هنود أميركا الوسطى في مهرجان الغضب فقال البرتوميجر الأمين العام لرابطة الهنود في بناما: "إن فقرنا المدقع وسوء التغذية الذي نعاني منه، والامية، ثمار قمع بدأ عام، ١٤٩٢

وقالت ريغو برتامنشو، زعيمة إحدى مجموعات الهنود الحمر، وهي مرشحة لنيل جائزة نوبل للسلام: إن شعبها ضحية لحملة أوروبية أميركية، تجاهلت حضارتي المايا والأزتيك اللتين ازدهرتا قبل وصول كولومبوس.

.. ودعت منظمة العفو الدولية إلى وقف ما أسمته انتشار قتل السكان الأصليين وإساءة معاملتهم. وأشارت في تقريرها الذي نشرته في "مكسيكوستي" إلى قيام جنود وفرق موت وثوار، وقضاة فاسدين، بخرق صارخ لحقوق الإنسان في الأمريكتين. وقالت: "ربما يكون القتل الجماعي للسكان الأصليين قد خف عما كان عليه، قبل خمسمئة عام، لكنه.. لم يتوقف".

الصورة في الأندلس

.. هذه إذن هي الصورة التي رسمها مبعوثو فرديناند وإيزابيلا، منذ أن نزل بحارة كولومبوس، بعد مغادرتهم إسبانيا بشهرين.. على الطرف الآخر من المحيط الأطلسي في "سان سلفادور" ثم "كوبا" ثم "سانت دومينغو".

.. فكيف كانت الصورة في الأندلس التي آل أمرها إلى هذين الملكين المتعصبين؟ بالأصح ماذا كانت الصورة العربية، عبر القرون الثمانية، التي عاشها العرب في الأندلس؟ .. وهل دخل العرب،

إلى تلك البلاد فاتحين، أم مستعمرين؟ وما الذي جعل ممالكهم وإماراتهم تتساقط تباعاً واحدة بعد الأخرى: طليطلة عام ١٠٨٥. سرقسطة عام ١١١٨ قرطبة عام ١٢٣٦. بلنسية عام ١٢٣٨. إشبيلية عام ١٢٤٨. مالاكا ١٤٨٧ بسطة عام ١٤٨٩.. وأخيراً غرناطة عام ١٤٩٢م؟

.. في الشهر الأخير من عام ١٩٩٢ نشرت مجلة "أدب ونقد" القاهرية التي يصدرها حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي في مصر، ملفاً ضافياً، بمناسبة مرور خمسمئة عام على خروج العرب من الأندلس. استقبلته رئيسة التحرير السيدة فريدة النقاش، الكاتبة المناضلة التي نحترمها بمقالة عنوانها "نحن لا نبكي على الأطلال" قالت فيها:

"بالرغم من كل ما أنجزه العرب والمسلمون في إسبانيا، فقد كانوا مستعمرين دام استيطانهم ثمانية قرون. ونحن لا نشعر بأي ألم إذ نقول بخروج الاستعمار العربي من إسبانيا. فهذه الحقيقة شيء، وكل الحقائق الأخرى.. شيء آخر".

معنى الأندلس: النهضة العلمية

.. ثم لم تلبث أن ذكرت بين الحقائق الأخرى "الإنجاز الثقافي والحضاري الضخم للعرب في إسبانيا"

.. ثم استطردت قائلة، بعد سطور قليلة:

"ويقتر المؤرخون والمستشرقون أن سكان إسبانيا الأصليين قد انتصروا للمسلمين عند الفتح لأنهم أغاثوهم من ظلم "القوط" المسيطرين حينذاك، والذين اتسم حكمهم بالهمجية والاستبداد".

.. واستشهدت بقول المستشرق الإسباني "خوان فيرنيت": إن معنى الأندلس يبقى هو النهضة العلمية لأوروبا، وأصل العلم الحديث.

.. في العدد نفسه من مجلة "أدب ونقد" عرض كاتب آخر هو حلمي سالم كتاب المفكر الفرنسي روجيه غارودي "الإسلام في الغرب" أو: قرطبة عاصمة الروح. وفي هذا الكتاب يذهب غارودي إلى أن دخول الإسلام شبه الجزيرة الإيبيرية وتغلغله فيها، لم يكن غزواً عسكرياً، فلقد كان المسلمون مخلصين للسكان الذين كانوا يرزحون تحت عبء الاضطهاد والتتكيل".

.. وحول هذه المسألة يتحدث الدكتور شاكر مصطفى في كتابه "الأندلس في التاريخ" عن يسميهم: المسلمين الجدد من الإسبان، فيقول: "وجمهرتهم من الفلاحين أقتان الأرض، ومن العبيد المعتقين. ولم يكن إسلام بعض منهم صحيحاً، لكن الإسلام، كان يحررهم من العبودية. وقد أصبح هؤلاء أكثرية السكان، وهو يسمى هؤلاء: المولدين Moladies.

ويستطرد الدكتور مصطفى، مشيراً إلى من يدعوهم: جيل المستعربين: "Les Mozarabes" أولئك الذين "لم يعتنقوا الإسلام، ولكن تألق الحضارة الإسلامية فتنهم، فاستعربوا لغة ولباساً وعادات. وصار حديثهم بالعربية مجال تطرف وتميز".

غارودي: في الأندلس صراع عقائدي

... ويثير غارودي، أمراً في منتهى الأهمية، يلتقي على منته مع المؤرخ الإسباني المعاصر الدكتور إغناسيو أولافي في كتابه "العرب لم يغزوا إسبانيا." (*) وقد نشره في لندن معرباً رياض الرئيس عام ١٩٩١، بعد أن ترجمه إسماعيل الأمين.

يرى غارودي أن الأندلس كان فيها صراع أهلي بين المسيحيين التقليديين، أهل عقيدة "التثليث: الأب والابن والروح القدس" والمسيحيين الموحدين الذين كانوا يسمون "المهرطقيين"، فيقول: لم ينتصر الإسلام في إسبانيا عن طريق غزو عسكري، بل، بواسطة تحول ثقافي. ويتميز هذا التحول بتطعيم الإسلام بنسخة من المسيحية الآريوسية، التوحيدية المنفتحة المواجهة للمسيحية التثليثية. ويتضح لنا هذا التطعيم إذا عرفنا أن المجادلين المسيحيين في الغرب كانوا يعتبرون الإسلام مساوفاً للهرطقة الآريوسية. بل.. إن بعضهم ينهم محمداً (ص) بعقد محاورات مع راهب آريوسي. وبذا استطاع أن يقتبس عقيدته.

وآريوس Arius هذا هو راهب ولد في الإسكندرية عام ٢٨٠م وتوفي ٣٣٦، وهو صاحب فرقة دينية -تعدّ هرطقية- تقول إن الابن (المسيح) غير مساوٍ للأب (الله) في الجوهر. .. أما "إغناسيو أولافي" فإنه يقتحم موضوعه اقتحاماً، من خلال فرضية مستحيلة لا يؤمن هو بها: "اجتاح الألمان أوروبا الشرقية وفرضوا الماركسية" ثم ينتهي منها إلى مايلي:

"بالنسبة إلى المعاصرين الذين شاركوا في احتفالات الثورة الروسية عام ١٩١٧، فإن هذه الفرضية تبدو مضحكة، لكنها أقل إضحاكاً من فرضية أخرى مقبولة عالمياً، هي أن العرب اجتاحت شبه جزيرة إيبيريا وفرضوا الإسلام. ذلك لأن الألمان اجتاحت روسيا فعلاً، بينما لم يدخل أي جيش عربي إسبانيا!..

.. ويتابع قائلاً إن المؤرخين التقليديين اعتقدوا أن في إمكانهم التأكيد على أن الحضارة العربية الإسلامية، قد فرضت على إسبانيا بالسلاح. لقد كانت المسيحية في إيبيريا في نهاية القرن السابع في حالة انحلال كامل، خاصة بعد قرن سيطرت فيه "الآريوسية" كديانة إسمية في دولة مزدهرة. وقد أشعل الأمراء المسيحيون الرجعيون من متدينين وعلمانيين، حرباً استمرت ثلاثة أرباع القرن، وانتهت بانتصار "الآريوسيين" الذين تابعوا تطورهم في سياق منطقي واضح وأصبحوا مسلمين.

السجل العسكري.... أم اللاهوتي والسياسي؟

إن المؤرخ الإسباني يرى من الضروري إعادة دراسة الانتشار الإسلامي منذ البداية، فهل تم هذا الانتشار عبر السجل العسكري أم اللاهوتي والسياسي، أم كليهما معاً؟ وما حجم الدور الفعلي لكل

(*) العنوان الأصلي للكتاب: "الثورة الإسلامية في الغرب" وقد صدر بالإسبانية في برشلونة عام ١٩٧٤.

منهما؟!

يتساءل إغناسيو أولافي:.. ألا يمكن بدلاً من فتوحات عسكرية "مستحيلة" أن يكون انتشار الدعوة الإسلامية في إيبيريا وغيرها، قد جاء ثمرة حركات اجتماعية وفكرية داخلية تبنت الدعوة وساعدتها؟

وهو يرى إن ثمة إجماعاً بين المؤرخين، من عرب ولاتين، متقدمين كانوا أو متأخرين، على أن عدد المسلمين الذين دخلوا إسبانيا بلغ سبعة آلاف على أقل تقدير، واثنى عشر ألفاً على أبعد تقدير. كذلك يجمعون على أن معظمهم كان من البربر الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام لتوهم، ولم يكونوا قد تعلموا العربية بعد. فكيف تمكن بضعة آلاف من السيطرة على عشرة ملايين "أريوسي" ومسيحي كانوا يعيشون حينذاك في أهم مدن العالم ازدهاراً؟

إن المؤرخ الإسباني يرى أن خرافة غزو العرب لإسبانيا، تعود إلى عدم وجود معلومات وإفية عن الفترة التي قيل أن الغزو حدث فيها، أي مطلع القرن الثامن الميلادي. وعندما فطن المهتمون، بعد زمن طويل، إلى هذه المسألة، راح كل فريق يخترع الوقائع التي تناسبه.

.. غير أن المؤرخ العربي السوري الدكتور شاكر مصطفى، يطرح في كتابه "الأندلس في التاريخ" ملاحظات هي في منتهى الأهمية والخطورة حول هذه المسألة. فهو يتذكر ما فعله موسى بن نصير حين استدعى أحد قواده ويدعى "طريف بن مالك النخعي" وأرسله في مئة فارس وأربعمئة راجل (رمضان: ٩١ هـ - تموز ٧١٠م) فنزل في الموضع الذي لا يزال يعرف باسمه حتى اليوم "طريف". وأغار على الجزيرة الخضراء وعاد بالسبي والمال. "وعند ذلك تبين موسى أن ردود فعل القوط أضعف من أن تقف لجيشه، وأن المقاومة لن تكون بالقدر الذي توحى به سعة المملكة القوطية، فأرسل عند ذلك بعثاً ثالثاً قاده مولاة طارق بن زياد". ويرى الدكتور مصطفى أن العدد المحدود الذي دخل به طارق إلى الأندلس، يؤكد أن الأمر لم يكن يعدو عند موسى محاولة أخرى للاستطلاع ومعرفة مدى المقاومة القوطية "بعد أن اطمأن تماماً إلى أنه.. لم يبق في البلاد من ينازعه داخلياً".

أخبار الأندلس: بعد مئة سنة من دخولها

.. إن أولافي يعتقد أن أخبار فتح الأندلس بدئ بكتابتها بعد قرن من تاريخ حدوثها. وقد كتبت اعتماداً على بعض الروايات المصرية التي سمعها طلاب جاؤوا من الأندلس إلى القاهرة.. فسمعوا ما سمعوا عن الفتح المزعوم. وإذن، وبعد مئة سنة من دخول العرب إلى الأندلس، راح المسلمون يبالغون في وقائع الفتح إلى حد الأساطير. ولكن المسيحيين، في المقابل وجدوا أن خرافة الفتح تناسبهم لتفسير هذا التحول في إسبانيا.. نحو الإسلام. ولكن أي إسبانيا هذه التي تحولت؟ إنها إسبانيا "الأريوسية" الموحدة.

حكاية الزوارق الأربعة .. والغزو

ثم ينتقل أولاغي إلى التدقيق في جانب آخر من الموضوع حسب ما ورد في "أخبار مجموعة" المنسوب إلى ابن حبيب^(١) قائلاً:

"أعار المدعو أولبان- يوليان- العرب أربعة زوارق، لا يزيد الحد الأقصى لحمولة الزرق الواحد عن خمسين رجلاً إضافة إلى البحارة، ويحتاج طارق في هذه الحالة، لنقل جيشه إلى خمس وثلاثين رحلة، أي: سبعين يوماً.. تقريباً. ذاك أن هذا النوع من الزوارق يحتاج، على الأقل إلى يرم واحد ليقطع المسافة، وإذا حسبنا الأسابيع ذات الطقس الرديء، التي تتوقف فيها الرحلات، بلغت هذه المدة ثلاثة أشهر، ولا يمكن أن يتم إبحار كذا، إلا إذا استطاع النازلون على شواطئ إسبانيا النجاة من مجزرة"

يستطرد المؤرخ الإسباني في الاتجاه نفسه فيقول:

"ينبغي القيام بمئة رحلة على الأقل، لنقل رجال طارق السبعة آلاف في ظروف عادية وشعب بحري وحده، من مثل أبناء مدينة قادش Cadés، على نحو أساسي يستطيع أن ينجز مثل هذه العملية. خاصة أن شعب هذه المدينة وهي ساحلية تقع جنوب إسبانيا- كان يقوم برحلات إلى انكلترا منذ الألف الثالث قبل الميلاد بحثاً عن القصدير. فضلاً عن أن بحارة قادش تمكنوا من الإبحار بمحاذاة شاطئ إفريقيا الغربي. وربما توصلوا إلى الدوران حول إفريقيا."

يضيف أولاغي "أن هؤلاء البحارة هم الذين ساعدوا "الفاندال Les Vandales" الجرمان على الانتقال في الاتجاه المعاكس. وبعد مرحلة من الانحطاط البحري كان بحارة قادش مازالوا قادرين، في أوائل القرن الثامن، على امتلاك زوارق تستطيع نقل الجيوش. والسؤال هو: لماذا أدى هؤلاء الأندلسيون هذه الخدمة إلى الذين جاؤوا لإخضاعهم. فلو سلمنا أن "طارق" خدع الإيبيريين ونجح في إخفاء نواياه، فلماذا ساعد هؤلاء البحارة موسى بن نصير في نقل الدعم لطارق بعد بضعة أشهر؟!".

وفي المقابل يقول الدكتور شاكر مصطفى إن المؤرخين يتحدثون عن إحراق السفن التي جاء طارق عليها ليقطع أملهم في العودة، أو ليجعل العرب الذين لا يتقون به، يؤمنون أنه جعل نفسه والبربر الذين معه أمام مصير واحد.

رواية تشبه الخيال المسرحي

إنه رأى أن الشكوك تحوم حول هذه الرواية كلها التي تشبه الخيال المسرحي، فقصة إحراق المراكب إنما رواها أول من رواها الإدريسي في "نزهة المشتاق" وابن الكردبوس، وهما من القرن

^(١) يرى المستشرق الهولندي راينهارد دوزي Reinhard Dozy أنه في الحقيقة نصوص كتبها تلميذ ابن حبيب ابن أبي الرقة الذي مزج معارف أستاذه بمعرفته الخاصة.

الهجري السادس، ثم رواها "الحميري" صاحب: أرض المعطار" بعدهم.. فلماذا لم يذكرها المؤرخون السابقون على مدى خمسة قرون سابقة؟ والعملية نفسها، تروى عن عدد من القواد الذين سبقوا طارقاً، ومنهم كما يذكر الدكتور مصطفى: "أرباط الحبشي" الذي عبر البحر إلى اليمن، والقائد الفارسي الذي رافق سيف بن ذي يزن إلى اليمن و"أسد بن الفرات" فاتح صقلية إلخ. "ولماذا يحرق طارق السفن ولا يأمرها بالعودة إلى ساحل المغرب؟" وكيف يحرق أسطولاً لا يملكه؟!"

.. أما قصة خطبة طارق بن زياد فهي قصة أخرى. وهي التي تنسب إليه وفيها يقول: "أيها الناس، أين المفر؟! البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة، أضيع من الأيتام في مأدبة اللثام. وقد استقبلكم العدو بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا قوت إلا ما تستخلصونه من عدوكم...".

.. يقول د. شاعر مصطفى: إنها بليغة جميلة شائعة، ولكن الشكوك تحف بها بدورها. فمن أين لابن زياد هذه البلاغة؟ وكيف يخاطب جنداً كانوا في جمهرتهم من البربر الذين لا يفقهون العربية؟!

.. على كل حال؛ فإنه لا ينفي قصة الخطبة نهائياً، ويرجح أنها كانت خليطاً من العربية والبربرية.. إلا أن "الرواية شذبت الخطاب وأعطته الصيغة البلاغية" غير أن ما يلفت النظر، بعد دخول طارق الأندلس، وبعده موسى بن نصير هو الطريقة التي رويت فيها أنباء تساقط المدن الإسبانية، واحدة بعد أخرى، على ضخامة بعضها، ومناعة بعضها الآخر.. وهذا هو الأمر الذي أثار اهتمام المؤرخ الإسباني.. ووجده جديراً بالتفنيد.

يعرض أبو العباس المقري أخبار فتوح هذه المدن في كتابه "فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" بما يدعم وجهة نظر "أولاغي"، لكن رواياته مشوبة بما يتميز به كثير من كتب التاريخ القديم، من افتقار إلى التدقيق والنخل في نقل الأخبار، ونقدها، في حيث لا يتناقض الخبر وذاته، أو.. يتعارض موضوعياً ومبادئ العقل. ولذلك فإنه أورد أخباراً لا يمكن أن تكون مقبولة كغزو "قرطبة" في سبعمة فارس، -وإن يكن هذا الخبر في ذاته مما يعزز الفكرة العامة عند "أولاغي" حول نفي غزو العرب الأندلس- علماً أنه أي: المقري هو نفسه قد تحدث عن سور قرطبة الحصين العالي، وكحكاية فتح موسى بن نصير مدينة "ماردة"، وهذا ما لفت نظر المؤرخ الإسباني المعاصر، فنقده بذلك.

يقول المقري عن مدينة ماردة: "كانت أيضاً دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر، وهي ذات عز ومنعة. وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف، فحاصرها أيضاً. وكان في أهلها منعة شديدة وبأس عظيم فنالوا من المسلمين دفعات وآوهم. وعمل موسى دبابه دب المسلمون تحتها إلى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونها."

ماردة وموسى والخضاب... المربع

.. ولكن هذه الحيلة لم تنفع المسلمين واستشهد بعضهم كما يقول المقرئ. وعندئذ فكر موسى بن نصير على نحو آخر.. لقد أراد أن يتفاوض مع أهل ماردة، وأن يوقع الرعب في قلوبهم على نحو فريد.. هو التلاعب بلون شعره، بواسطة صبغة أو تخضيبه "واحتال في توهيمهم في نفسه، فدخلوا عليه أول يوم فإذا هو أبيض الرأس واللحية لما نصل خضابه -أي: زال أثر الصبغة وظهر الشيب- فلم يتفق لهم معه أمر. وعاودوه قبل الفطر بيوم فإذا هو قد قنأ لحيته -أي صبغها- فجاءت كضرام عرّج -أي: حمراء كشجر عرّج سريع الالتهاب- فعجبوا من ذلك. وعاودوه يوم الفطر، فإذا هو قد سوّد لحيته فازداد تعجبهم منه، وكانوا لا يعرفون الخضاب ولا استعماله، فقالوا لقومهم: إنا نقاتل أنبياء يتخلقون كيف شاؤوا، ويتصورون في كل صورة أحبوا: كان ملكهم شيخاً فقد صار شاباً، والرأي أن نقاربه ونعطيه ما يسأله، فمالنا به طاقة. فأذعنوا عند ذلك، وأكملوا صلحهم مع موسى."

لابأس أن نتوقف عند تعليق المؤرخ الإسباني "أولاغي" على هذه الروايات حول تسائط المدن والبلدان الإسبانية، في أيدي "الغزاة العرب". فهو ينقل عن ابن حبيب، أو تلميذه، في كتاب "أخبار مجموعة" أنه "بعد انتصار طارق في معركة وادي لكة Guadalete اجتاز ممر الجزيرة Algeciras ثم توجه نحو مدينة أسيجا ECIGA .

يقول أولاغي: في الواقع يشكل هذا الممر فحاً حقيقياً يساوي الدخول فيه تسليم الرأس إلى العدو. أما مدينة أسيجا فتقع على مسافة ١٦٠ كم من مخرج هذا الممر، والطريق إليها مزروعة بمدن مثل رندة Randa وأوسما Osuma وغيرهما: مدن قوية منذ القدم، قبل الفتح الروماني."

.. ويسخر أولاغي من الرواية عن احتلال قرطبة، بواسطة سبعمئة فارس حصلوا على انخيول بعد نزولهم في إيبيريا، قائلاً:

"هكذا، إذن نجحت هذه الكوكبة من الفرسان في عمل باهر يعتبر فريداً في سجلات الحروب، فقد استطاعوا احتلال أهم مدن إيبيريا، تلك المدينة، كان يحميها سور هائل بني في أواخر عهد الأمبراطورية الرومانية، ولا يزال قسم منه منتصباً حتى الآن."

وهناك من ظنهم أكلة لحوم البشر

.. وإذا كان "المقرئ" قد ذكر أن أهل ماردة Merida، ظنوا قوم موسى بن نصير، حين صبغ لحيته "أنبياء يتخلقون كيف شاؤوا" فإن أولاغي يروي أن بعضهم حسبهم من "أكلة لحوم البشر" ثم يقول متحدثاً عن ماردة:

"كانت هذه المدينة من أهم مدن إيبيريا، كان يسكنها أكثر من نصف مليون نسمة (ولابد أن العرب فقدوا عقولهم أمام عظمتها) وقد ظلت حتى القرن الثامن مركزاً حضارياً هاماً، خصوصاً بعماراتها الأنيقة. ولم تكن قرية مأهولة بسلطان جهلة. ولم يكن من الممكن خداعهم بحيلة: تغيير لون

الحياة..!!

وثمة فكرة أخطر وأهم كثيراً مما تقدم جميعاً، يقدمها أولاجي نقلاً عن "أخبار مجموعة" فهو يقول:

عندما نزل موسى بن نصير في مدينة الجزيرة Algeciras أخبروه عن الطريق التي اجتازها طارق فأعلن عدم رغبته بالحقاق به. فقال له المسيحيون الذين يلعبون دور الدليل: "نقودك في طريق أفضل من طريقه، حيث تجد مدناً أكثر أهمية من المدن التي استولى عليها، وحيث -بعون الله- تصبح سيداً دون منازع" ويتابع أولاجي:

"لم يعرف العرب أين يذهبون، فالمسيحيون هم الذين يقترحون لهم الأفكار. أما "الغزاة" فكانوا تحت رحمة السكان المحليين!!"

.. فلو كان هؤلاء المسيحيون الإسبان يشعرون بالعداء إزاء هؤلاء الغزاة الأجانب، فكيف يتطوعون ليدلوهم على طريق أفضل، ويخبروهم عن مدن أهم للاستيلاء عليها؟ .. ويستطرد أولاجي:

"وماذا عن المدن الحصينة مثل طليطلة Tolido أو رندة Randa؟ صمدت هذه الأخيرة، مدة نصف قرن في وجه أمراء قرطبة الأشد قوة من طارق وموسى مجتمعين. أن يأخذ العرب مدناً بالخدعة السرية، أو بفضل الخيانات المحلية أمر يمكن فهمه، ولكن.. أن يجتاحوا بسهولة بالغة، مئات المدن، كان بعضها من أهم مدن العالم آنذاك.. فأمر آخر.."

.. وفي تنويع آخر على اللحن ذاته: أن العرب لم يغزوا الأندلس، ينطلق أولاجي منطلقاً يصب في الطاحونة ذاتها. فهو يقول: إن القوط في كتابات البربر يحملون أسماء عربية، لذلك يصعب حتى على المختصين التعرف على أصول هذه الأسماء اللاتينية والجرمانية" ويتابع: "ولأن الأخبار اللاتينية لم تتحدث عن الأحداث التي جرت في إيبيريا بعد سنة ٧١١، أي بعد أن خسرت الارثوذكسية إيبيريا، يصبح من المستحيل التعرف على أسماء الإيبيريين الذين لعبوا دوراً متميزاً عن غيرهم. فما هي حقيقة الرجل الذي عرف تحت اسم عبد الرحمن الغافقي"

هل كان الفرسان.. من جبال البيرنة؟

.. ومن المعروف أن هذا الغافقي العظيم كان قد اندفع من الأندلس عبر جبال البيرنة سنة ٧٣٢م نحو فرنسا.. حيث كانت معركة بواتيه Poitiers بينه وبين شارل مارتل، في السنة نفسها في شهر تشرين الأول، وقد هزم عبد الرحمن في هذه المعركة وقتل.

إن أولاجي يمضي بعيداً في هذا الاتجاه، فيتساءل:

"ألا يمكننا الافتراض أن أولئك الفرسان الذين اندفعوا في غزواتهم حتى مدينة بواتيه والذين

تدعي الروايات أنهم عرب، لم يكونوا إلا من سكان جبال البيرنة، ولم يعرفوا إلا تحت أسماء عربية؟ .. ويصل هذا المؤرخ الإسباني في هذا الاتجاه إلى حدود المبالغة فيقول:

"حوالي سنة ٧٥٥م توصل محارب شجاع إلى احتلال قرطبة والسيطرة على الأندلس، نقلت الروايات البربرية اسمه، وسكنت عنه الروايات اللاتينية. لقبه العرب بالمهاجر ثم بالداخل. من أجل تدعيم هيئته ونفوذه، ثم من أجل مدامنة ذريته التي درج الناس على مدحها ومصانعتها، رأى المؤرخون أن ينسبوا له أصلاً أموياً في دمشق. وذهب البعض إلى أبعد من ذلك واعتبره من ذرية النبي (ص).. وكثيراً ما أعطي هذا الوسام المشرف إلى زعماء تلك المرحلة" .. ثم ينتهي أولاغبي إلى هذا الاستنتاج المدهش:

"يقول المؤرخون التقليديون إن عبد الرحمن كان من ذرية خلفاء دمشق -الأمويين- بينما نحن نعلم أنه نموذج جرمانى أشقر اللون فاقعه، وحافظت ذريته على هذه الخصائص، خلال قرنين من الزمن: بشرة فاتحة اللون وعيون زرقاء وشعر شديد الشقرة. إن استمرار هذه الخصائص الفيزيولوجية في ذرية الأمير "العربي" لفتت أنظار المؤرخين الأندلسيين المسلمين، وقد فسّر بعضهم هذا الأمر مستنداً إلى ما يقوله كتاب الأخبار البربر حول أن أمه كانت بربرية (من قبائل الطوارق الذين يحملون هذه الفيزيولوجية الجرمانية).

المورثات السائدة والمتنحية

.. ويسخر أولاغبي قوانين الوراثة، من أجل دعم وجهة نظره وتفسير حالة عبد الرحمن الداخل. ولاسيما القانون المعروف باسم "المورثات السائدة والمتنحية"، فيقول:

"من المعروف حسب هذا القانون أن العيون الزرقاء هي التي تنتحى لصالح العيون السوداء. أي أن الفرد ذا العينين الزرقاوين لا يمكن أن يحمل جينة Gene (مورثة) العيون السوداء. ومع أن انقراض السامي يتميز بالعيون السوداء، فيمكن أن يحمل السامي جينة العيون الزرقاء وتهيمن الأولى على الثانية. أما العكس فمستحيل. ولتبرير زرقاء عيون عبد الرحمن "السامي" علينا أن نفترض أن والده المزعوم سامياً يحمل جينة العيون الزرقاء. هكذا اتحدت جينة الوالد الزرقاء مع الجينات التي تحملها الوالدة البربرية، ولا بد أن يأتي الأمير بعيون زرقاء. هذه النتيجة رغم ندرتها ليست بعيدة عن الخيال. إلا أن ما هو مستبعد فعلاً، أن يأتي ابن السامي والبربرية، فاتح البشرة وأشقر الشعر. يتطلب الأمر فعلاً معجزة بيولوجية خارقة". وهكذا ينتهي أولاغبي إلى أن عبد الرحمن الداخل: "لم يكن أموياً ولا سامياً ولا بربرياً. وهذا ما يؤكد السياق التاريخي، تماماً.. كما يؤكد أن الغزو العربي لم يحدث مطلقاً".

.. ويمضي المؤرخ الإسباني مؤكداً خطواته في هذا المجال فيقول:

"حتى لو افترضنا أن آخر شخص من سلالة الأمويين قد اختار إيبيريا البعيدة لهجرته وتخلي

طوعاً عن جميع الخيارات الجغرافية التي كانت في متناول يده، فقد كان عليه أن يبذل جهوداً ليفرض نفسه وسلطانه، تقترب هي الأخرى من حدود الأسطورة: كان عليه في هذه الحالة أن يقاتل الإيبيريين الماقبل- مسلمين الذين ليس لديهم أي سبب لتفتتهم أصوله المزعومة، كان عليه أن يقاتلهم مدة ثلاثين سنة."

أعلام أندلسيون ... من أصل إيبيري

... وهو يرفض فكرة تفوق عبد الرحمن العسكري قائلاً:

"إن المؤرخين التقليديين فسّروا سيطرته على إيبيريا بقدراته العسكرية التي دأبوا على كيل المدائح لها. إلا أن حقيقة عبقرية العسكرية لا تكفي لتفسير نجاحه، فخلال القرون الوسطى حاول الكثيرون من العسكريين الذين يعترف لهم المؤرخون بالإجماع بموهبة عسكرية مشابهة، فرض سلطانهم على إيبيريا، ولم ينجحوا بالمقدار نفسه الذي توصل إليه عبد الرحمن."

ويذهب أولاغي أبعد من هذا فيذكر أنه "كان على كل رجل عظيم أن يعود في أصوله إلى العرب. والإيبيري الذي لم يكن بإمكانه ادعاء الرجوع بأصوله إلى الرسول (ص) كي لا ينافس أمراء قرطبة، اكتفى باتخاذ إبراهيم وهاجر جدّين له". وهو يجزم أن اثنين من أعلام الأندلس هما من أصل إيبيري. فيكتب:

"أما الإيبيريون التوحيديون الأحاديون، فكانوا قد بدؤوا منذ القرنين التاسع والعاشر يتخذون أساء عربية، والأمثلة كثيرة، خصوصاً في صفوف كبار كتاب العربية، الذين نعرف بصورة أكيدة أصلهم الإيبيري: ابن حيان وابن حزم اللذين لا خلاف حول أصلهما الإيبيري."

.. إذن هكذا، فإن إغناسيو أولاغي يرفض رفضاً قاطعاً فكرة غزو العرب شبه الجزيرة الإيبيرية، فالعرب والمسلمون لم يفتحوا إسبانيا عسكرياً، وقد حدث التحول إلى الإسلام في الأندلس عبر حركة الأفكار وتصارعها، ثم هيمنة الفكرة-القوة، على حد تعبير أولاغي، وهي التي شكلت عصب الحضارة العربية-الإسلامية في ثلاثة أرباع العالم.. في تلك الأيام.

الأريوسية ... تصارع الكاثوليكية

إن هذا المفكر الإسباني يفرد صفحات كثيرة للحديث عن الصراع الديني الذي شهدته إيبيريا قبل الحقبة العربية. فقد دخلت الأرثوذكسية إلى إسبانيا القوطية الكاثوليكية، ودخلت أيضاً الأريوسية. وكان ثمة حضور لليهود... ولكن المسيحية عموماً في شبه الجزيرة الإيبيرية كانت في نهاية القرن السابع في حالة انحلال كامل خصوصاً بعد قرن سيطرت فيه الأريوسية. "وبإجماع نادر اعترف جميع المؤرخين بفشل المسيحية في المملكة القوطية. ولأنهم لم يروا التزامن بين أحداث إيبيريا وبين الهيجان الديني في الشرق، فسّروا هذا الفشل بأسباب محلية وعابرة، فعزّوا ذلك إلى الضعف الذي

شجع العدو الخارجي على غزو البلاد. لكن خرافة هذا الغزو حجبت عن أنظارهم الانقسام الإيديولوجي في المجتمع الإيبيري."

ويعود أولاً على إلى التأكيد، مرة أخرى، على هذه المسألة بتعبير آخر، فهو يقول:

"حسب الروايات العربية، تمّ غزو إيبيريا من قبل سكان شبه الجزيرة العربية الذين استطاعوا بقوة السلاح أن يؤسسوا إمبراطورية عظيمة. وحسب أقدم النصوص اللاتينية التي وصلتنا، فإن الأمر لا يعدو كونه ثورة دينية، كانت في بادئ الأمر محلية، ثم انخرطت في حركة سياسية ثقافية حضارية واسعة النطاق، شملت نصف العالم آنذاك."

١٠ ملايين لا يخفون بضربة ساحر

إن المؤرخ الإسباني يرى أن أسياذ إيبيريا الجدد احتاجوا إلى ثلاثة أرباع القرن، كي يرتبوا أمورهم في هذه البلاد أو "يتفقا على مغامرات الفتوح" حسب تعبيره، فماذا فعل الإيبيريون في هذه الأثناء؟ هاهو ذا يقول:

"لم يحدثنا التاريخ عنهم بعد سنة ٧١١م. مع هذا فإن عشرة ملايين نسمة -في أقل تقدير- لا يمكن أن يكونوا قد اختفوا هكذا بضربة ساحر: ففي تلك الحقبة السعيدة، لم تكن هناك وسائل إبادة جماعية. وكان يلزم الفاتحين كثير من الوقت والعمل لجزر هذا العدد بالسيف."

ثم يتساءل تساؤلاً يجيء في موضعه:

"فإذا كان اجتياح أرض مسيحية من قبل "الكفار" قد بدا بهذه الضخامة بماذا نستطيع إذاً أن نصف اعتناق شعبها الإسلام وتمثله الحضارة العربية- الإسلامية؟ إما أن يكونوا قد قتلوا جميعاً، وإما أنهم استرقوا عبيداً، أو إنهم لجؤوا إلى الجبال، أو، ببساطة، أن المؤرخين تجاهلوا وجودهم."

.. ثم يندفع أولاً على بثقة وقوة كي يضع النقاط على الحروف، معتبراً أن الإيبيريين قد وضعوا أيديهم على نبض العصر حينذاك، من خلال الإندفاع الحضارية العربية التي كان الدين الجديد شعارها. إنها لم تكن اندفاعاً بدوية ولا غزواً تترياً:

"لماذا، وكيف اعتنقت الجماعات الإنسانية التي كانت متمركزة في المقاطعات البيزنطية في آسيا ومصر وإفريقيا الشمالية وشبه جزيرة إيبيريا، إيماناً جديداً، ومفهوماً جديداً للوجود؟ قد يسهل تحويل خرافة الغزوات العربية -المستحيلة جغرافياً- وتاريخياً إلى حقيقة، ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن حضارة عربية إسلامية قد امتدت في جميع هذه الأصقاع."

الآريوسية وقد تخلت عن التثليث

.. على أن الآريوسية كانت ذات شأن آخر. وباعتبار أنها تخلت عن عقيدة التثليث، فإن أولاً على يطلق عليها صفة التوفيقية، ويقول:

"تميزت التوفيقية الأريوسية بالإيمان بآله واحد، يحمل بالنسبة لبعض المفكرين صفات الكائن الماورائي، أو يرتدي هالة الأبوية المافوق أرضية. يراقب الناس وأعمالهم، فيكافئ ويعاقب. ولم يكن هذا المعتقد مجرداً ولا حتى خارقاً، ولا يتضمن قواعد تتجاوز المبادئ الطبيعية أو البيولوجية التي تشكل مجتمعاً سليماً. واضفت أهمية الموروث الثقافي الإيبيري على التوفيقية الأريوسية حساسية الانفتاح على جميع التيارات الثقافية الآتية أو التي ستأتي، من أراضٍ بعيدة، شرط أن تكون مشهورة بحضارة غنية وذات طاقة خلاقة".

نقاط لقاء ... مع العقيدة الجديدة

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أنه "حين وصل دعاة الإسلام لم تختلف الخطوط الكبرى في إيمانهم عن تلك التي كانت في معتقد السكان الأصليين. ولعل نقطة الخلاف الوحيدة كانت وجود النبي (ص) وبعض قواعد في السلوك. وعبر السجال الفكري بين فقهاء مدرستين تكادان أن تكونتا مدرسة واحدة، انزلت التوفيقية. الأريوسية إلى التوفيقية الإسلامية. وهكذا دون صراع أو تواطؤ تم التبشير بصورة بطيئة وهادئة".

ولم تلبث المسألة العقيدية الدينية أن اندمجت في صميم الموضوع الثقافي، يقول أولافي: "لا نعرف الكثير عن سياق التعريب الذي عاشه الشعب، لكننا لا نستطيع أن ننكر أن المتقنين من أنصار التوحيد الأحادي -يعني الأريوسيين- تركوا في تلك المرحلة اللغة اللاتينية ليتعلموا العربية، بهدف التميز عن "الثالوثيين" والإطلاع على عقيدة تتفق وعقيدتهم في شأن الطبيعة الإلهية، وعلى الحضارة التي بدأت تزدهر في ظل هذه العقيدة. وشيئاً فشيئاً بدأت السياسة والحضارة تؤثران على الدين في فروعه العامة".

إذاً: فإن اللاتينية انهارت حضارة ولغة وعقيدة.

والمؤرخ الإسباني يلح كثيراً على هذا الجانب من الموضوع، فهو يرى أن الأحداث "اتخذت لدى المسيحيين طابعاً سياسياً، وأصبحوا في القرن التاسع في حالة ميؤوس منها. وعلى المستوى النظري واللاهوتي وصل المتقنون المسيحيون الذين يعيشون في الأندلس إلى طريق مسدود، ثم تماثلوا في مابعد شيئا فشيئاً مع الحضارة العربية - الأندلسية المسيطرة التي لا تقهر".

الحرية الدينية في الأندلس

.. مهما يكن من أمر، فإن المرء يستطيع أن يرى على الجانب الآخر، حالة الذين رفضوا الانسحاق والوضع المستجد في إيبيريا، من خلال المثال الذي يقدمه أولافي من قرطبة. "فخلال النصف الأول من القرن التاسع كانت أقلية مسيحية مهمة تعيش في قرطبة وتمارس عباداتها بحرية كاملة".

ويستشهد أولاًغي بما كتبه القديس إيلوج، وكان مسيحياً متعصباً عاش تلك الفترة، فهو يقول: "نعيش بينهم دون أن نتعرض إلى أي مضايقات، في ما يتعلق بمعتقدنا" ويتابع أولاًغي: "وبالفعل فإن كنائسهم حافظت على أبراجها وأجراسها. وتوجد محتويات آخر هذه الكنائس، واثني عشر ديراً في محيط المدينة".

"كذلك تمتع المسيحيون بامتياز المحافظة على حاكم مستقل، كان كونتاً أو قاضياً يدعى: الرقيب. وكان حرس الأمير من الطائفة المسيحية. ولعب هذا الحرس دوراً هاماً في السياسة الإسلامية. واحتل عدد من الأرثوذكس مناصب هامة في الدولة".

الحضارة الأندلسية الفريدة

وبعد، فإن هذا المؤرخ الإسباني لا يكتفي بالإنحياز إلى الفكرة القائلة: إن العرب لم يغزوا إسبانيا، بل إنه أضاف إلى الموضوع رؤية حضارية ثاقبة. وفي الوقت الذي لا ينكر فيه فضل الحضارة العربية الإسلامية، على العالم في ذلك العصر، فإنه يتحدث عن حضارة عربية جديدة في الأندلس. حضارة اختمرت في التربة الإسبانية، فكانت علامة كبيرة هامة، في تحول أوروبا وتقدمها في عصورها الحديثة. إنه يشير إلى الإنجازات الحضارية التي حققها العرب في الأندلس بعد قرن ونصف تقريباً من قيام دولتهم هناك، معتبراً أنها كانت شيئاً مختلفاً عما كان يمكن أن يحدث "لو كان صحيحاً أن جيشاً عربياً فتح إيبيريا سنة ٧١١ وأنجز عملية أسلمة الناس في سنة ٧١٤" فقد كان ينبغي أن تظهر مع الحضارة العربية- الإسلامية في الأندلس مباشرة مبادئ هندسية وتقنية، وفرضت هذه المبادئ نفسها، بتفوقها أو بمساعدة الفاتحين، فلماذا لم تظهر هذه المبادئ إلا بعد قرن ونصف قرن.. أو أكثر؟

إن الأمر يتعلق إذاً بالشروط الموضوعية لما تمكن تسميته: النضج الحضاري. ولعل هذا أجمل ما انتهى إليه أولاًغي، وهو يكتب سطورهِ الأخيرة:

"لوغزا العرب إسبانيا، لما خمرت الخميرة الإسلامية العجين الأندلسي، لتخرج تلك الحضارة الأندلسية الفريدة في التاريخ، والتي يعود إليها انتشار الغرب من الظلمة في عصر النهضة. إن تاريخ المجتمعات الإنسانية هو ثمرة لعبة الأفكار، وليس تكتيكات الجنرالات المدججين بوسائل التدمير".